أدبنا الأكثر حداثة.. الأكثر حيرة

- تشوفات معوقة -

محمد العباس

النزعةُ التجديدية في أدبنا، وإنْ نهلتَ بعضَ مواصفات تجربة التحديث العربي وكانتْ عُرضةً لموحيات العولمة الحداثيّة، فإنّها انبثقتْ من الحاجة لتلبية متطلّبات وعي تاريخي، وانبنتْ في جانب مهم منها على قاعدة اجتماعيةٍ مرَّتْ هي الأخرى بتحوّلات ثورية كبرى.

وأما هذه التحوّلات فبعضها مستوعَبٌ ومتحكّم في انبناءاته وتفرّعاته المستحدثة، وفق رؤية تحديثية أشمل ولكنها أبطأ؛ وبعضُها مهمَل أو مسموح له بالتمدّد العشوائي، بوصفها حالاتٍ كميّةً أو كيفيّةً، لأنه غير مرئي أصلاً، وغير مدرك، لا من قبل المجدّدين ولا من أصحاب النزعة المحافظة. ولما كان التجديد عموماً حالةً انفعالية أو انقلابيّة لا تقرّ الانتظارَ ولا التصالح، فإنّها تستمدّ طاقتها من الرغبة الجامحة في التدمير وتقويض البنى القديمة بكافّة تشكّلاتها، ومحاولةِ إثبات مشروعيّتها هي وتعزيزها. ولأنّ المحافظة حالةٌ مركزية إنتاجيّاً، منغلقةٌ شديدةُ الحذر تجاه كل محاولة لزحزحة بناها المتوارثة، فقد كان لا بدّ من حصول الاصطدام بين تيّار أدبيّ ناهض لم يتبيّن مساره بعد، ونمط ثقافي راسخ يتعامى عن حركة التاريخ خارج دائرته المحدودة، ولا يرى في العودة إلى التراث إلاّ عودة زمنية أو اسميّة؛ فهذا النمط الأخير يريد التجدّد، ولكنْ **بحذر وبطء شديدين**، وبإصرار على أن يكون هو مصدَر الإنتاج المعرفي والأدبي الأوحد، بل ومن خلال مؤسّساته التي تعاني - في حدّ ذاتها - اختلالاتٍ تكوينيّةً معوّقةً.

> **معوقات أدبنا ناتجة عن القوى المحافظة التي ازدادت حنكة مع انفتاحها على مضامين التيار الجديد، وناتجة كذلك عن التيار التجديدي نفسه الذي استجاب للهامش المشروط المقدم إليه وانشغل بمعارك وهمية حتى أصبح مجرد مسمى يمارس اشتغاله على اللغة خياراً تجديدياً وحيداً!**

وبين هذه التجاذبات ظلّ أدبُنا هو الأكثر حداثةً؛ ونعني بهذه: حداثةَ التجريب الأجناسية والتُّقْنِيقات اللغوية والمضامين العرضية لا الحداثة الزمنية؛ يراوح خطوة للإمام وأخرى للخلف، ويسجّل قطيعته مع السائد، إخلالاً بمجمل قدسيات الثقافة العربية عموماً، وإشباعاً لحاجات متولّدة من بروز بنى مغايرة، وبحثاً عن أفق لممكناتِ التمدّد الكمّيّ والنّوعيّ واحتماليةِ الاعتراف بمشروعيّته رسميّاً وجماهيرياً... فيما تولّدت معوّقاتٌ أخرى بعضُها متفرّعٌ عن القوى المحافظة، والبعض الآخر ناشئٌ عن تيّار

التحديث نفسه. فالقوى المحافظة ازدادتْ قوةً وحنكةً ولاسيّما مع انفتاحها على مضامين التيّار التجديدي ومعين جمالياته، وتحكُّمِها في مفاصل الساحة الثقافيّة عبر هياكل ومؤسّسات استطاعتْ أن تفتّت بوساطتها الوحدةَ المصطنعةَ التي كان يتوهمها ممثّلو التيّار التجديدي. وأما هذا التيار فقد استجاب بدوره للهامش المشروط الذي قُدِّمَ إليه، كما ضاعت هويتُه مع كثرة الطُّرُق على طروحاته، وفُرِّغتْ مضامينهُ بإشغاله بمعارك وهميّة، إلى أن استسلم جانبٌ كبيرٌ منه إلى الفرديّة، والتنازلِ عن صياغةِ تجربتهِ كتيّار فاعل، ليبقى في النهاية مجرَّد مسمّى يمارس اشتغالهَ على اللغة بوصفها خياراً تجديدياً وحيداً.

ومازال أدبنا الحديث يعاني من التهميش والعزل، رغم الكثرة الكاثرة من الأقلام التي تتعاطاه وتمتهنه كأداة تعبير معصرنة، ورغم إطلالته اليومية عبر وسائل الإعلام المختلفة، ورغم حضوره المكثّف من خلال المهرجانات والندوات. وأيُّ قراءة متأنية لمجريات فعلنا الثقافي الباطنية كفيلةٌ بأن تكشف مدى تموُّه تلك التمظهرات الشكلانية، ودرجة معاناة أدبنا، الأحدث بصورة خاصة، من الاغتراب والانتقاص؛ فهو لم يسجِّل أيَّ اختراق لذائقة الناس أو ذاكرتهم، ولم يدخلْ بعد في مقررات المدارس، ولم يُدْرَجْ ضمن أيّ خطة تربوية، استهانةً به كمّاً وكيفاً، تأكيداً لعدم مشروعيته. ولذلك لم يكن من المستغرب أن تتوقَّفَ كلُّ الدراسات في ملف الشعر السعودي المنشورة في العدد ١١٤ لمجلة **الحرس الوطني** عند النقطة التي بدأ فيها شعرُنا الأكثرُ حداثةً بالظهور، ما عدا التماعاتٍ ضدّيةً في ورقة الدكتور حسن الهُوَيْمل، وأخرى وصفيةً في ورقة الدكتور محمد الشُّنْطي.

وأدبنا الحديث معوّقٌ ومعطلٌ بالحجج والمعوقات التي اصطدم بها الأدب العربي نفسُهُ عموماً. فنصوصُه، كما يُزعم، غيرُ مستقرّة كأجناس أدبية... وشعريّته منفِّرة للأسماع، لم تعتدْها الذائقةُ ولا الفطرةُ العربيّة... وتطويراته المستحدثة فيها مخالفةٌ صريحة للبيان العربي، أو مشاكِلةٌ لآداب الآخر الغربي... أما مضامينُه فتصادم الميزانَ القِيَمِيَّ والخُلُقِيَّ للمجتمع. ودعاوى التعويق هذه صادرةٌ عن الوسيط القائم بين الأدب كمنتج تغييري، والجمهور كمتأثِّر قابلٍ للتأثّر بحركة الفعل الثقافي، على اعتبار أنّ الثقافة ظاهرةٌ تاريخيّة وإنسانيّة. فالوسيط المتمثّل في هياكل ومؤسسات هي أقرب إلى حرّاس الأدب (بل والذوقِ أيضاً) لا يُنتج ولا يُحبِّذ إلا الثقافةَ المدجَّنة أو المنضبطة، الأشبهَ بما ينتجه القطاعُ التقليدي في الاقتصاد...، وهو قطاع يلبّي الحاجاتِ المرئيّة، الشديدةَ البروزِ والإلحاحِ، ولا ينفذ إلى أعمق الرغائب الإنسانية، إيماناً منه بسكونية التاريخ، وثباتِ المتطلبات المادية والروحية، وفاعليّةِ الأدوات التعبيرية مهما نال الزمن من نضارتها. ولأنه عاجز عن الامتداد بالرؤية إلى ما وراء المُنْتَقَش على السطوح من صور، فإنّه بالتأكيد عاجزٌ عن رفع مستوى التطلّع لدى المتلقّي. ليس هذا وحسب، بل إنّ الوسيط المذكور يتدخّل كوسيط قضائيّ لترشيد تحوّلات الذائقة، وردّ المستجِدّ من الروافد النقديّة والإبداعية نيابةً عن المتلقي؛ فحين أدخل الدكتور عبد الله الغذامي، إلى ساحتنا الثقافية، جوانبَ من الألسنية بمحاضرته الشهيرة منتصف الثمانينات، وعنوانها «الموقف النقدي بين علم الأدب وعلم المضمون»، ثارتْ ثائرةُ حرّاس الأدب، إشفاقاً على نسيجنا الاجتماعي الذي لم «يتأهّل» بعدُ

حين أدخل الغذامي في منتصف الثمانينات جوانب من اللسنية ثارت ثائرة حراس الأدب إشفاقاً على نسيجنا الاجتماعي الذي لم يتأهل بعد لعملية التحديث!

لعملية التحديث ولا يحتاج إلى تجديد خلاياه المستهلكة، ولعدم حاجة تربتنا الثقافية أصلاً إلى ما يخصبها!. وبذلك ظلتْ فعاليةُ التجديد الأدبية في موقع مهمّشٍ قياساً إلى متواليات الفعل الاجتماعي والاقتصادي.. بمعنى أنّ هذا الأدب المتضخّم بالأقلام والإصدارات، يُراد له عبر الوسائط أن يكون مجرّدَ تمظهراتٍ بَذْخيّة وشكلانية، غيرِ مؤثّرةٍ في تغيير البنى الاجتماعية.

وبفعل قوة الطرد العاتية تلك انزاح أدبُنا الحديثُ عن أهمّ مقوّماته الفاعلة؛ فبدا بمجمله من خلال حملات التيئيس، واستمراريّة الطَرْقِ عليه، وكأنّه أدبٌ دخيلٌ، لا يمتّ راهنه بصلة لما أسَّسَه روّادُهُ، أو مجرّد خاطرات تهويميّة لذوات مأزومة تمتهن الخربشات التجريبيّة، وتسدّ ثغراتها المعرفيّةَ بمضامينَ ورؤى من دوائر ثقافية عليا، أو اغترابية. بل إنّ الكثير من ذلك الأدب، الأكثر حداثة، ظهر بمظهر النموذج المستورَد الذي يُعالجُ ما لا رصيدَ له اجتماعياً، فكان فوق الواقع أو خارجه، الأمر الذي سهّل تحييدَهُ وإخراجَه من العمليّة التربويّة، بل ومن خطط الانماء الأشمل، لأنه من خلال ذلك المظهر لم يكن خيرَ ممثّل لشخصية إنساننا بأبعاده المختلفة التي كان أهمّها الانضباطية الأخلاقية القصوى (كما هو مروَّج نظرياً، وكما ينبغي الامتثالُ له صورياً) فاحتُسِبَ ردةَ فعلٍ انفعاليةٍ، لا حالةً من حالاتِ الوعي المعمّقة والبعيدةِ المدى.

ولفهم حقيقة ما أنتجنا أدَبيّاً خلال العقود الثلاثة الماضية، ينبغي ألاّ نرتهن لمحدودية الدائرة الثقافية، وضغوطاتها التقويميّة. فالفعلُ الأدبي نشاط إنساني بالدرجة الأولى، ولا بدّ أن نلامس الصلة بينه وبين فعاليّات إنسانيّة أخرى. وقد جاء هذا الفعل في ظلّ تحوّلات اقتصادية واجتماعية وسياسية كبرى، حتَّمَتْ أن تتغير بنيتُنا القولية، وأن يكون لخطابنا الأدبي صيغةٌ بلاغيّةٌ أقدر على التعامل مع راهنية العصر. ذلك أنّ أدبنا الذي أنتجناه ضمن تلك الصيرورة لم يكن مجرّد لَغْوٍ واشتغالٍ على البهرجة اللفظية، كما يميل البعض، بل لا يمكن أن نقرّ بأن كل تمظهراته كانت متماثلة أو متولدة من مثيرات المضخّة الروحية والمعرفيّة الكبرى المتمثّلة في الأصل العربي؛ وفي صيغ التحدّي والتعويق التي برزتْ سواء في وجه الشعر أو القَصِّ أو حتى المناهج النقديّة الحديثة أكبرُ دليلٍ على أنّ العملية لم تكن مجرّد مماحكاتٍ استعراضيّة. فالمعركة كانت بين قوى تجديدية، وأخرى تستشعر التحوّلاتِ التي قد تقلّل من أهميّتها كمرشحات للذوق والأخلاق، هذا إنْ لم تقوض مشروعيتها. ولم تكن المعركة ذات مظهر أو بعد بلاغي وحيد. والذي حسم الأمر لصالح الطرف الثاني هو جاهزيته كمنظومة راسخة في وجه تيّار صاعد لم يكن يعي حقيقةَ وجوده وأهميَّتَه؛ وهو ما يفسّر انكفاءَ الكثير من روّاده، وتَنَصُّلَ البعضِ من تاريخه، وانطفاءَ تشوُّفاتِ تلكِ الشعلةِ الإبداعيّةِ المتوقّدة، بل ويفسّر أيضاً المستوى المتواضِعَ للجديد من الإبداع: فحرارة المجابهة التي كانت تصهر قصائد الشاعر محمد الثبيتي، مثلاً، لا تتأتى له

اليوم في ظل توفّر هامش يسمح بالتعدّد والتجاور البارد، لا التنافسي. وهذا التعدّد مشروطٌ ضمنيّاً بخطوط تبقي عمليّةَ التحديث عموماً في حالة انعزال تنسُّكي في أحسن الأحوال... وهو الأمر الذي يعطي الدكتور الغذامي إمكانيّةَ محاولة زحزحة بنى الثبات التكوينية في القصيدة العربية من خلال بحث «القصيدة والنصّ المضادّ» مثلاً، حيث استطاعت المنظومةُ الجديدةُ مقاربةَ قدسيّة اللّغة، إلى حدّ الإخلال بمعاييرها النحوية، والقفز على كمون المناهج النقديّة المستهلكة، ولكن ضمن دائرة منفصلة عن مواقع الفعل الثقافي الأشمل.

وإذا كانت الساحة لم تنتج حتى الآن قراءةً معمّقةً وواعيةً لنشأة أدبنا الأكثر حداثةً، خصوصاً من جانب المتحمّسين لهذا النموذج التحديثي، فهذا يعطي الفرصةَ لقوى التعويق المضادة لتقديم قراءات منحازة تدفع بكلّ تطلّعات المنجَز الثقافي نحو الدوائر التغريبيّة، واتّهامِ هذا المُنْجَز بالعبثِ بالتراث، والإخلالِ بقدسيّةِ اللّغة، وتهديمِ قوالب التعبير المتعارف عليها، والذاتيةِ في التعبير، والتجريبيّةِ، بالإضافة إلى سلسلة طويلة من الهامشيّات التي اندفع وراء سرابها كثيرٌ من ممثلي المنظومة التحديثية... الأمر الذي عوّق بدوره تصاعدَ التوجّهات الفكريّة والمضمونيّة للتيّار الأكثر حداثة في أدبنا، وقلّل من إمكانية تكثيرِ الفلسفة الجمالية التي تستند عليها قوى التجديد الأدبي وتوصيلها. وكان الأَوْلَى أن يستبدل وعيُ الفئات الفاعلة تلك المهاتراتِ، التي حَتَّمها شيْءٌ من الغَفْلَة والاستعراضيّةِ أو حبِّ البقاءِ، بمجادلاتٍ أوسعَ حول الأصل الجمالي أو النفسي أو الاجتماعي للتيّار التحديثي، أو القدر الذي يحمله هذا التيارُ من خطاب الحداثة المعاصر كطرف متأثّر بمركزوية ثقافية، أو الكيفية التي يمكن بها ربطُه بالخطط التنموية الشاملة، التي قد تساعد على الإقرار بمشروعيته رسمياً وجماهيرياً، وتقلّل من حدّة المجابهة المفتعلة من قبل الوسيط المعوّق لتناميه عموماً. لكن هذا التيّار كمنظومة مهمومة بالتأسْلُب أو التمرُّسِ الشكليّ، لم يكن يدرك أهميّته إلا من خلال تمثّله لحالات أدبيّة، ولم يكن على دراية بفعالياته اللاأدبيّة - وهي الأهمّ - كامتداد عضوي، وكغطاء روحي، رغم استناده إلى كوكبة هامّة من المنظّرين الذين أسهموا بقوّة في استجلاء أبعاده الأدبية، لكنهم لم يحرّروه من حالة اللاوعي بمداراته وإمكانياته الكبرى لتجاوز المعوقات، ولا من انشغالاته بتطوير تقنياته الأسلوبية.

> **مجلة «النص الجديد»، التي صدر منها عددان حتى الآن، تأكيد لما يردده الطرف المعوق لتنامي التيار الأكثر حداثة في أدبنا، وإسيما بما تنشره من إبداع أقرب إلى التجريب المفتوح بدون ضوابط أو معيارية، ومشاكلة التيارات الغربية الأكثر تطرفاً، مع غياب صريح للخصوصية النقدية المنبثقة من داخل التيار نفسه!**

وحالة اللاوعي هذه التي تكتنف هذا التيار الأكثر حداثة، والقائمة على التغافل عن الخلفية التي تتشابك فيها مستوياتُ النشاط الإبداعي، هي التي أفقدته آخرَ ما تبقّى له من مشروعيّته الإبداعية. فقد خطا بعضُ متنفِّذيه خطوةً لا يمكن أن نصفها بالنخبوية، بقدر ما يمكن وصفها بالرؤية القاصرة؛ ونعني هنا مجلّة **النص الجديد** التي صدر منها عددان حتى الآن، وهي بمجملها تأكيدٌ لما يردّده الطرفُ المعوِّق لتنامي التيّار، خصوصاً بما تنشره من إبداع أقربَ إلى

التجريب المفتوح بدون ضوابط أو معيارية، ومشاكلةِ التياراتِ الغربيةِ الأكثرَ تطرّفاً، مع غياب صريح للخصوصية النقدية المنبثقة من داخل التيّار نفسه، وهو ما يمكّنُ الطرفَ المتربّص من الإصرار على رفضه الصريحِ للتيار كمنظومة فكرية وكفلسفة جماليّة. ففي هذه المجلة إصرار محيّر على أن تكون دوريةً غير جماهيرية، بل وغير مقروءة، إيماناً من متنفذيها بأن الأدب لا ينبغي أن يقول شيئاً، وألاّ يرتهن للايديولوجيا، وألاّ يحمل أيَّ فعالية مشاكسةٍ للثوابت الثقافية... في الوقت الذي تنفتح فيه على نصوص مسطّحة، تأخذ مشروعيّتها من المنحى الشكلانيّ لعملية التحديث، ولا تفرّق بين طاقةِ النصوص الرؤيوية ومثيراتِها الزائفة، فتزعم تمثُّلَ المساحة العريضة من المجدّدين، وتطمح لأن تكون صوتَ التيّار التحديثي عموماً، بدون الحاجة إلى منهجية واضحة. وهذا يعني أن التيّار يبحث عن الكمّ تصخيباً لصوته بمن هبّ ودبّ، وتعويضاً لعجزه النوعي.

وتشكّل خطوة **النصّ الجديد** بالإضافة إلى الركام الهائل المسكوت عن اختلالاته الذي تقذفه الصفحاتُ الثقافية وبعض الدوريات حالةً من حالات التشويه أو التقويض الداخلي للتيّار، لأنها بمثابة إعلانٍ للتنازل عن الأدب المنتج **للقيم**، ومحاولةٍ لإفقار الإبداع من مبرّرات صوغ التجربة الإنسانية، والانكفاءِ على بُعْدِ التجديد اللغوي عوضاً عن التفعيل الشمولي لوحدات التيّار التحديثي... وهو ما يهدّد أدبنا الأكثر حداثة بفقدان الفعالية والتأثير في العملية الإنمائية، لأنه بهذه الصيغة إنما ينفي أثر معطيات التجربة في مراكمة المفهومات التي تتحوّل بدورها إلى حالة أنضج ممثّلة بالوعي. كما يكرس ذلك التوجّه فرادةَ الصوت ضمن تيّار لامتجانس، كلٌّ يجرب فيه ابتكارَ جمالياتٍ فردانية، لا تستند إلى رؤية تنظيرية... الأمر الذي قد يفتّت هوية التيّار ويغيّبها، أو يجعلها رهينةَ التجريب لفترة أطول، وهذا أمر طبيعي يحدث لأيّ جبهة تتعرّض لضغوطات ماديّة ومعنوية مكثّفة، ولا تمتلك مخزوناً تواجه به محاولات القهر والامحاء من الخارطة الإبداعية.

ورغم توفّر فصيل نقدي مسانِدٍ يمارس دورَه فعالية ملحوظة، وبأدائية أكثرَ وعياً وخصوبةً من الشقّ الإبداعي - بالنظر إلى كون فئاته الفاعلة أكثر درايةً بتشابك مستويات النشاط الإنساني - فإنّهُ مازال بعيداً عن مجريات التجربة، وغيرَ قادر على تمنيع التيّار من الانزلاقات التجريبيّة... بل مازال مغترباً عن متواليات الفعل الثقافي الأشمل، وعن خصوصية التجربة المحليّة. فإحساسه بمنشأ الظاهرة التجديدية مرتهنٌ لمركزية غربية، أو استعادية تراثيّة، أو ربطية بيئية... بل إن القراءات تسجّل محاولةً لمماثلة التيّار وحبسه في منظور تجارب سابقة؛ وهذا نقد لانقديّ، عند مجادلة التشظيات الفكرية الناشئة عن النزعة التجديدية، وهو الأمر الذي يحتّم فرزَ مستويات التيّار الصوتيّة، واستشراف احتمالياته، ليكون هذا النقد بحق ناقداً، مقوِّماً، ومشاركاً في صياغة تشوّفات التيّار، ولئلاّ يظل عرضةً لحيرة التماثل مع مثيرات حداثة العصر المفرطة التأورُبِ، أو مصالحةِ المؤسسات المحافظة، بتفكيك وحداته، والاستجابة التدريجية لتشوّهات الأطر والمضامين التقليدية، أو توسّلِ الذائقة الجماهيرية بتخفيض تعالياته الإبداعية.